تفريغ المجلس (٠١٧)

"تتمة الباب الخامس - ٢-الحضارة القرطاجنية بالجزائر. ٣- تأثير قرطاجنة على البربر في الخط واللغة. ٤- تأثير قرطاجنة على البربر في العقيدة. ٥-نشوء الممالك البربرية العظمى[1]

[٢ - الحضارة القرطاجنية بالجزائر]

[1] الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد: فنواصل قراءة هذا الكتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث، لمؤلفه العلامة مبارك بن محمد الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو من علماء الجزائر من مدينة ميلة، وكان عضوا في جمعية علماء المسلمين، توفي سنة ١٨٤٥م، وكتب هذا الكتاب "تاريخ الجزائر" وأثنى عليه أهل العلم، وكنا أخذنا منه شوطا، انتهينا إلى الباب الخامس "**في ذكر البربر على عهد قرطاجنة، وجمهورية رومة**"، البربر سبق الكلام عليهم، وهم معروفون، وقرطاجنة قلنا أصلهم من البونيقيين أو الفينيقيين الذين نزلوا الجانب الشرقي من هذه الأرض -من هذا البلد-.

فمر معنا العنصر الأول علاقة البربر مع القرطاجنيين، وذكر المؤلف أن قرطاجنة لم تكن مثل رومة، لم تكن لها مطامع استعمارية، وإنما كان المقصود أن تنزل للأراضي وتبني الموانئ التي تجعلها نقطة عبور، ووصلة لنقل تجارتها وكانت معروفة بالتجارة البحرية، فلم تكن قرطاجنة أهل استغلال على مثل ما عليه رومة وغيرها، انتهينا من هذا العنصر.

كان البربر قد اجتازوا العصر الحجري[1] وعرفوا الزراعة قبل تأسيس قرطاجنة، ولكنهم استفادوا من القرطاجنيين فوائد كثيرة وجليلة بحيث يصدق عليهم أنهم تلاميذهم في العمران والحضارة[2].

كان شجر الكروم والزيتون بأرض البربر من النباتات الطبيعية ولم يهتدوا إلى وجه استثماره، فلما جاورهم القرطاجنيون أخذوا عنهم صناعة عصر العنب للخمر وحب الزيتون للزيت[3]، وكانوا قد عرفوا الفلاحة. فاستفادوا من القرطاجنيين ضروبا أخر من البذور لم تكن بوطنهم[4]، وأخذوا عنهم أيضا آلة لدرس الحبوب[5]، ولم تكن للبربر دراية بالغراسة، فاستفادوا من القرطاجنيين غراسة الأشجار على اختلافها، وتعلموا منهم تربية الحيوانات.

وعرفوا منهم المعادن فاستخرجوها، من ذلك النحاس، استخرجوه قبل الفتح الروماني، ويظن بعض الباحثين أن ذلك كان بناحية تنس[6]، وتعلموا منهم صنع الرصاص والحلي[7] ونحت[8] الحجارة النفيسة، ولم ترج صناعة الحديد[9] بين البربر إلا على يد القرطاجنيين، وتعلموا منهم صناعة الأواني المطلية

---

[1] أهل التاريخ يقسمون العصور: العصر القديم والعصر الحديث، والقديم يقسمونه: عصر ما قبل التاريخ وما بعد التاريخ، والعصر القديم يجعلون منه: العصر الحجري، وكل ذلك ينسبونه إلى أشياء، فالحجري نسبة إلى غالبية استعمال الحجارة في أمورهم المعيشية، سواء البناء أو إيقاد النار ..الخ، فيقول: البربر عرفوا الزراعة، ولكن كانت هناك وسائل تقنية نافعة استفادوها من قرطاجنة.

[2] أي البربر تلاميذ قرطاجنة.

[3] وهذه زراعة قديمة في هذه الأرض، لكن قد استفاد طريقتها البربر من القرطاجنيين.

[4] أهل البربر استفادوا هذه البذور إما بأن كانت قطاجنة تعرفها وتزرعها، فجلبوها من بلدان إلى هنا.

[5] يعني كيف تُدرس وتُدق.

[6] منطقة تنس عريقة جدا وقديمة.

[7] ما تتزين به المرأة.

[8] النحت هو جعل أشكال للحجارة بمطرقة ومسمار، إذا كان هذا على الحجارة يسمى نحتا، وإذا كان على الخشب والحديد والنحاس -وهي حرفتنا- يسمى نقشا. يعني أن يرسم على النحاس أو على الحديد أو نحو ذلك، وهي حرفة قديمة كانت عندنا وتركتنا ولم نتركها.

[9] يعني اشتهروا بصناعة الحديد لكن على يد القرطاجنيين.

وفنهم في البناء، فكانوا يبنون القباب على شكل الأهرام، وعرفوا الفن الإغريقي أيضا في البناء، ولكن بواسطة القرطاجنيين[١].

وقد عثر الباحثون في الوطن الجزائري على طلال من بناءات البربر حكوا[٢] فيها الفن الفينيقي، وكثيرا ما يجدون أطلالا مركبة من الفنين الفينيقي والاغريقي[٣].

وليس لقرطاجنة من حيث أنها حكومة يد في انتشار هذه الحضارة لأنها كانت في نواح لم تكن لقرطاجنة عليها سلطة، وإنما كان انتشارها ناشئا عن أسباب مرجعها إلى ما كان بين الأمتين من الروابط. وهاك أهمها[٤]:

١ - المدن البونيقية[٥]: ذلك أن البربر كانوا يقصدون تلك المدن يشترون منها بضائع بونيقية ويشاهدون بها حضارة بونيقية، فينقلونها داخل وطنهم باختيارهم[٦]. وما أسرع البربري إلى الأخذ بالجميل إذا لم يكن مبغضا لأهله[٧].

---

[١] الإغريق سكان أرض آسيا، هم سكان بشبه جزيرة البلقان، يعرفون عند العرب ببلاد اليونان، فالقرطاجنيون كانوا يسافرون، لهم تاجرة البحر، فنزلوا بلدانا كثيرة، فالبربر عرفوا طريقتهم في البناء، وعرفوا طريقة الإغريق في البناء، فنزلوا بلدانا كثيرة، فالبربر عرفوا طريقتهم في البناء، وعرفوا طريقة الإغريق في البناء بواسطة القرطاجنيين.

[٢] يعني ماثلوا، يقالك حكى فعل فلان يعني ماثله.

[٣] أما الفينيقيون هم القرطاجنيون، فهؤلاء أخذ البربر عنهم هذا الفن بالمخالطة، وأما الإغريق وهم بعيدون فأخذوا عنهم هذا الفن بواسطة قرطاجنة.

[٤] يقول سبب انتشار هذه الحضارة ليس من حيث أن حكومة قرطاجنة كان لها يد في ذلك، وإنما لأسباب أخرى.

[٥] البونيقيون نسبة إلى الفينيقيين، سموا ذلك لنزولهم بهذه الأرض.

[٦] هذا من أسباب انتشار الفن القرطاجني عند البربر، كانوا يأتون هذه البلدان أو المدن، فما يرونه عندهم يأخذونه.

[٧] مبارك الميلي رَحِمَهُ اللهُ يقول هذا طبع في البربر، وهو أنهم يأخذون بالشيء الجميع من غيره إذا لم يبادر إلى بغضه، أما إذا أبغضه لا يأخذ منه شيئا، مثل علاقة البربر بالرومان، لم يأخذوا منهم شيئا، بخلاف أخذهم عن القرطاجنيين.

٢ - الجنود المرتزقة: ذلك أن قرطاجنة كان لها من البربر جنود مرتزقة[١]، وهؤلاء الجنود يختلطون بالبونيقيين ويتأثرون بحضارتهم. فبعد أن يقضوا بينهم زمنا يعودون إلى أوطانهم ناشرين لتلك الحضارة[٢].

٣ - أمراء البربر: ذلك أن الكثير من أمراء البربر ولوعا بترقية وطنهم، فكانوا يقتبسون من جيرانهم البونيقيين ما يبلغون به أمنيتهم، فيأخذون من مدنيتهم وحضارتهم أمثلة صالحة ينشرونها بين رعاياهم بهمة وعناية، ويسيرون بها في مساكنهم وإداراتهم شوطا بعيدا، والناس- كما قيل- على دين ملوكهم[٣].

ولكون البربر هم الذين جلبوا الى وطنهم الحضارة القرطاجنية ونشروها بينهم باختيارهم لم تسقط هذه الحضارة بسقوط قرطاجنة بل عاشت في العصر الروماني، ولم يضرها جوار الحضارة الرومانية[٤].

---

[١] مر معنا أن القرطاجنيين لما صارت فيهم هجمات من الرومان احتاجوا إلى أن يكون لهم جيش للدفاع، وهم ليسوا أهل إغارة واستعمار واستدمار وتسلط، لكنهم يحتاجون للدفاع، فهم أصلا ليسوا أهل حرب، لكنهم أخذوا واتخذوا من البربر جنودا.

[٢] الجنود هؤلاء ينزلون عند البونيقيين، ويعيشون معهم، فيأخذون عنهم حضارتهم، يعني الحضارات تنتقل بواسطة المعايشة، والمخالطة.

[٣] هذه ثلاثة أسباب جعلت الفن القرطاجني ينتشر في أرض البربر، كون البربر كانوا يذهبون إلى مدنهم، فيجدون مثل ذلك فينقلونه، كون البربر كانوا جنودا ينزلون عند البونيقيين فيأخذون عنهم أيضا حضارتهم، وأمراء البربر كانوا أيضا إذا رأوا هذه التحف والرقي والحضارة عند البونيقيين، يحبون أن ينقلوها إلى بلدانهم، ويتخذون أمثلة مما يرونه. والناس يتبعون ملوكهم.

[٤] لأن البربر أخذوها عن قبول وطواعية.

ذكر مبارك الميلي تعليقا فقال (**تأخر رواج صناعة الحديد بين البربر الى ذلك العهد**) يعني مجيء القرطاجنيين (**لا يدل على بعدهم عن الحضارة لأن مجيئ القرطاجنيين كان لأول العصر الحديدي فيما يظهر**) سمي بالعصر الحديدي لأنهم صاروا يعرفون الحديد ويستغلونه (**فقد قال تعالى في شأن داوود: {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} وذلك يدل على أن عصر داوود هو بداية العصر الحديدي وقد علمنا الخلاف في تأسيس قرطاجنة هل كان في عصر داوود أو بعده، وان تأسيسها كان بعد تعرفهم بهذا الوطن على كل حال.**)

قال بيروني[1]: بدلا من أن يقضي الرومان على حضارة قرطاجنة نشروها ومدوا في عمرها، مع عدم المناسبة بين الفينيقيين والرومان أصلا وحضارة[2]، ولكن طول مكث الفينيقيين بأفريقية غرس حضارتهم في نفوس البربر غرسا لا يزول بزوال ملكها، حتى أن الرومان لما صاروا يملكون وينشرون حضارتهم لم يفهم ذلك البربر إلا أنها حضارة قرطاجنية، ولم يزل ذلك من أفكارهم إلا الفتح العربي فكان عمر هذه الحضارة قرنا.

هذا كلام بيروني سقناه لما فيه من الشهادات العادلة، وفيه سبب لانتشار حضارة قرطاجنة بين البربر وطول أمدها غير الأسباب التي قدمنا[3]، ولكن ما قدمناه هي الاسباب الحقيقية أما طول المكث وحده فغير كاف. وسنرى ان طول مكث الرومان لم يتسبب عنه بقاء حضارتهم بعد ذهاب سيادتهم، ولم ينتج عنه انتشارها حتى أيام سيطرتهم، بل في كلام بيروني هذا ما يغني في رد ما جعله سببا لبقاء حضارة قرطاجنة عن انتظار ما يأتي في آخر الباب التالي[4].

---

[1] مؤرخ، محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي، مؤرخ جغرافي محقق مدقق، قيل هو فلكي رياضي فيزيائي راسخ وكان يترجم، ولد في مدينة بيرون وهي إحدى ضواحي خوارزم، وكتب في علوم كثيرة، حتى قيل كان عالما موسوعيا، وكان مع فارسيته يحب العربية، حتى قال (**الهجاء بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية**)، وقال في ذاك الزمن -توفي سنة ٤٠٠هـ- (**اللغة العربية هي اللغة الوحيدة الجديرة أن تكون لغة العلم**) هذا هو الحق، أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة الجديرة أن تواكب العلم في كل زمان ومكان، بخلاف اللغات الأخرى، والبيرون له كتاب في التاريخ سماه الآثار الباقية عن القرون الخالية، وله كتب أخرى، توفي مدينة غزمة التي هي كابُل الآن.

[2] لا يوجد تناسب بين الفينيقيين والرومان لا في الأصل ولا في الحضارة، بخلاف بينهم وبين البربر.

[3] يقول إن سبب انتشار الحضارة القرطاجنية وجود مدن فينيقية، والمرتزقة كانوا ينقلون أيضا حضارتهم، وأمراء البربر أيضا كانوا ينقلون حضارتهم، لكن البيروني زاد عاملا رابعا وهو طول بقاء القرطاجنيين في هذه الأرض -إفريقيا-

[4] يقول طول البقاء ليس سببا قويا في انتقال الحضارة كما هي الأسباب الثلاثة التي سبقت.

٣- تأثير قرطاجنة على البربر في الخط واللغة[١].

كانت للبربر حروف هجائية كما كانت لهم لغة، ولكنها لم تكن لغة آداب وعلم[٢]، فلما خالطوا الفينيقيين تأثروا بلغتهم ومالوا إلى خطهم[٣]، حتى صاروا بقرطة[٤] لا يتكلمون بغير الفينيقية، وأصبحت هي اللغة الرسمية بدواوين الحكومة على عهد مصينيسا فمن بعده من الملوك[٥]، وظهر ذلك على نقودهم الدولية[٦] التي عاشت بعيش دولتهم إلى أواسط القرن الأول للميلاد[٧].

وعلى أيدي الملوك والأمراء انتشرت هذه اللغة بين العامة خصوصا في الجهات التي تجاور مملكة قرطاجنة[٨]، ولم تزل[٩] حية بنواحي قالمة وبونة[١٠] إلى أيام القديس أغسطين، غير أنها لم تكن إذ ذاك لغة مدرسية[١١]، والبلغاء يترفعون عنها ويتظاهرون بجهلها، وإنما هي لغة البوادي الذين كانوا يجهلون اللغة اللطينية إلى ذلك العهد.

---

[١] الكتابة، واللغة التي ينطقون بها.

[٢] وهذا قد يناقش فيه المؤلف في بعضه، لأن بعض المتخصصين يرون أن البربر أصلهم ينتهي إلى العرب، ويتفقون معهم في أصل اللغة.

[٣] يعني يكاد يكون المؤلف مع بعض المختصين والمحققين يتفقون في النهاية، وأن البربر صاروا إلى لغة الفينيقيين التي هي سامية تنتهي إلى لغة العرب، لكن بعض أهل الاختصاص يقولون إن أصل البربر يعود إلى العرب.

[٤] منطقة.

[٥] يعني اللغة الرسمية هي لغة الفينيقيين.

[٦] يعني في العملات التي يتعاملون بها.

[٧] يعني بعد البعثة النبوية للمسيح عيسى ﷺ.

[٨] يعني الجهة الشرقية.

[٩] الفعل زال مضارعه ثلاثة: زال يزول بمعنى ذهب، وزال يزال بمعنى دام، وزال يزيل، فعلى الأول لم تزل لم تذهب، وهنا لم تزل أي دائمة.

[١٠] هي عنابة وفيه علماء ينسبون إليها، كما في كتب التراجم، يقال (البوني) يعني العنابي، يترجمون في القرن الخامس، والسادس، والسابع ونحو ذلك

[١١] يعني مرتبة بحيث تعد لغة مدرسة.

فكان الرومان يحتاجون في ذلك الحين إلى مترجم عارف بالفينيقية عندما يضطرون إلى مخاطبة البداة[1] من البربر.

وقد وجدت كتابات بقالمة ونواحيها وقسنطينة وميلة على قبور بهذه اللغة، ويرجع تاريخ هذه الكتابات إلى ما بعد سقوط قرطاجنة[2]، ومن اللغة الأعلام[3]، وقد اتخذ البربر لبعض مدنهم أعلاما فينيقية[4]، ومن ملوك نوميديا من سمي أبناءه بأعلام فينيقية، فقد كان لمصينيسيا ابن يدعى منستبعل[5] وابن آخر يدعى آذر بعل، واقتفت السوقة[6] أثر الملوك في ذلك قرونا، ويوجد بجهات سطيف وجبل أوراس وسور

---

[1] جمع بادي، ويقال: البدو أيضا.

[2] لا تزال البحوث إلى الآن، مخابر الآثار المختصة، وقبل نحو شهرين أو شهرين ونصف، تم اكتشاف مدينة تحت الأرض بأكملها، في مدينة قسنطينة، بعد النقب والحفر والبحث، مدينة كاملة برونقها بدرجها وسلاليمها والبيوت والغرف قديمة جدا، والقانون الساري أنه إذا وجدت مدينة هكذا فتلك الأرض تؤخذ من صاحبها، يعوَض لكن حسب ما سألت أن ذلك التعويض غير مكافئ فيه إجحاف، لكن تؤخذ الأرض من صاحبها عنوة أحب أم لم يحب، يعني إذا كانت لك أرض واكتشفت فيها شيئا خبئه لا تظن أنهم سيعطونك شيئا كبيرا.

المهم .. البحث والتنقيب لا يزال إلى الآن، وهذا تم اكتشافه قبل نحو شهرين ونصف أو ثلاثة، تحدثت مع أحدهم فقال لي: اكتشفوا قريبا هذا في مدينة قسنطينة أظن.

[3] الإسم الذي يعيّن مسمى مطلقا:

اسم يعين المسمى مطلقا * علمه كجعفر وخرنقا**

[4] سموا مدنا بأسماء فينيقية.

[5] لفظة بعل اسم صنم كما قال تعالى {أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ}الصافات١٢٥، والبعل في القرآن الكريم كله بمعنى الزوج، وفيه بيت لصاحب "مشتركات القرآن" يقول فيه

.... * فيه من البعل فهو الزوج حيثُ جَرى**

إلا أتدعون بعلاً فالمراد به * معبودُهم صنمٌ بالبعل قد شُهِرا**

يعني الاسم الأول، وبعده لفظة البعل إضافة إلى الصنم الذي كانوا يعبدونه.

[6] من يسوقهم الملوك.

الغزلان كتابات بحروف لطينية لاعلام فينيقية. منها نمفامو، صدر بعل، بريق بعل، بو ملكار، مع أن هذه الجهات لم تدخلها قرطاجنة قط[1].

فأنت ترى أن اللغة الفينيقية عاشت بالجزائر بعد قرطاجنة قرونا، ولم تقض عليها أو تذهب بأغلبيتها لغة الأمم التي جاءت بعد القرطاجنيين، إلى أن جاء العرب فقضت لغتهم على هذه اللغة[2].

قال يبروني: اتفق المؤرخون على أنه لا يمكن معرفة ما بقي من آثار هذه اللغة لأنها لغة سامية وقد دخلت عليها أختها العربية وحلت محلها[3].

---

[1] إذن من الذي نقل؟ البربر هم الذين نقلوا هذه الأعلام إلى هنا.
فالحاصل أن البربر كان لهم تأثر بالفينيقيين كثيرا، أصل الفينيقيين سامي عرب، وهذا مما يستدل به ويقوي القول الذي يقول بأن أصل البربر ينتهي إلى العرب، للتوافق الذي وُجد بين الجنسين.

والآن دعوات مغرضة وفاسدة للتنسل من العربية، ودعوى أن البربر أصل مستقل، وأن العرب احتلوهم وبعض الأشياء التي مثل هذه، القصد منها سياسي ديني، وليس الأصل إثبات جنس أو هوية معينة فالإسلام دين الجميع لا يخص العرب، ولا قريشا، ولا غير ذلك، واليهود طائفة منهم اعترفوا بنبوة النبي ﷺ ولكن قالوا: هو نبي العرب، وحكم عليهم النبي ﷺ بأنهم كفار، حتى يؤمنوا بأنه نبي للجميع، فالمقصود أن فيه بعض الدعوات المغرضة التي تتلبس بلبوس ظاهر غير باطنه، يزعمون أن البربر أصل مستقل لهم هويتهم وجنسيتهم وأصولهم وتقاليدهم، وطقوسهم، يريدون بذلك التنسل من دين الإسلام ليس إلا، وهذا في الحقيقة أمر ليس بالسهل، ومن ورائه فرنسا الغشاشة هذه وبعض الدول الكافرة التي تريد هدم الإسلام، فنسأل الله تعالى أن يجعل كيد هؤلاء في نحورهم، ونسأل الله تبارك وتعالى بالنسبة لبني جلدتنا وجنسنا وبلدنا أن يهديهم وأن يبصرهم بالحق.

[2] أصل اللغة يرجع إلى واحد، وكثير من الكلمات التي عند البربر مرجعها إلى اللغة العربية، وحتى الذين يحسنون اللهجة البربرية القبائلية يقرّون بهذا.

[3] إذن ترجع إليها يتفقان في الأصل.

هذا وإن انتشار الفينيقية بتلك الدرجة ودوام عمرها قرونا لا يفيدان أن اللسان البربري حفظها كما هي. بل لا بد أن تكون قد تغيرت وامتزجت بالبربرية، وهذا وجه آخر عندي لعدم امكان معرفة ما بقي من آثارها[1].

[1] كون البربر تأثروا بلغة الفينيقيين، لا يعني أنها بقيت على أصل الفينيقية، بل امتزجت بلهجة البربر، وهذا ما يجعلنا لا نستطيع أن نعرف ما بقي من آثار أصل هذه اللغة الفينيقية.

٤ - تأثير قرطاجنة على البربر في العقيدة.

كانت للبربر ديانتهم التي لا تختلف عن ديانات الأمم القديمة الوثنية إلا من حيث تفاصيل العبادات وتماثيل المعبودات وأسماؤها التي هي من توابع اللغات[١].

ولما جاورهم القرطاجنيون تأثروا بهم في عقيدهم وقلدوهم في كثير من طرائق عبادتهم وغيروا بعض ما ورثوه عن أسلافهم بما شاهدوه عند جيراهم.

عبد الفينيقيون إله البربر "أمون" لكن حسب تقاليدهم وبعد تسميته "بعلهمون" وبعد صنع تماثيل له غير تمثالي التيس والكبش[٢]. فقلدهم البربر في تلك التماثيل أيضا[٣] وشادوا- إجلالا لبعلهمون- تماثيل

---

[١] سقت معنا ديانات البربر وأنها كانت لهم الوثنية.

[٢] الفينيقيون كذلك عبدوا إله البربر الذي هو أمون وغيروا اسمه حتى غيروا صوره.

[٣] حتى ننتبه إلى أن هذه الصور في بعض الملابس والآثار لم تأت من الفراغ، صورة التيس، صورة الكبش، رأس السبع، الأفعى ...الخ أشياء كثيرة لها أصول عقدية ينتهي إليها الناس، قد يقول قائل: أنا أفعل هذا، ليس قصدي، وليس المراد ..الخ ولكن كما قال ابن عباس ؓ في قوله تعالى {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً }نوح٢٣، مع أن هؤلاء أسماء رجال صالحين، لكن لما ماتوا عكف أقوامهم على أماكنهم، يعني هؤلاء الخمس سواع ويغوث ويعوق ونسر وود، هؤلاء كانوا أهل صلاح من قوم نوح، ولما ماتوا فمن باب التعظيم صار قومهم يجتمعون عندهم، مثلما يفعل الناس الآن، وذهب الزمان، فقالوا: لو نصور صورهم، وذهب الزمانن فقالوا: نجعل لهم تمثالا، ذهب الزمان وجاء إبليس في صورة إنس وقال: ألا أدعوكم لما كان يفعل الأجداد؟ قالوا: ماذا؟ قال: كانوا يعبدونها، فعبدوهم، وتلك الأصنام هي نفسها التي صارت إلى العرب، العرب لم يكونوا أهل وثنية، لم يكونوا أهل شرك، كانوا أصحاب حنيفية سمحة وأول من أدخل عليهم عبادة الأصنام، وسيب السوائب وبحّر البحيرة وحمى الحام هو عمرو لحي الخزاعي، أتى الشام ولمّا رجع مرّ على جُدة فوجد هذه الأصنام تعبد، فأحب هذا النوع من العبادة واستملحه واستمرأه، وكانت له كلمة في قومه، فأتى بهذه الأصنام إلى مكة، فعُبدت من دون الله، لكن خمسة أصنام من يأخذ ومن لا يأخذ؟! مكة فيها أناس كثيرون، فعمدوا إلى تقليد هذا الصنم فيتخذ صنما صغيرا، ويبنيه بالطين إذا تكسر بنى آخر، أو التمر وإذا جاع أكله.

فالعرب لم يكونوا أهل شرك، هكذا وقع الشرك في قوم نوح، وكذلك الآن، إبقاء هذه الأمور، صورة الكبش، صورة التيس، رأس السبع، والأفعى، وغير ذلك من العلامات التي إذا درس وجدت أنها تنتهي إلى أصل شركي، وأصل كفري وأصل يخالف عقيدة الإسلام، فكيف نتركها؟ أنت الآن تقول أعملها من غير نية، لا أملك قصدا لأعبد التيس ونحوه،

بقرطة وميلة وقالمة[1]، وعبدوا من آلهة الفينيقيين " استارتي" و"جليست"، ومن الآلهة التي بقي اسمها الى ما بعد الاستيلاء الروماني "بليدير" ومعناه الرب العظيم. وكان معبودا بسيقوس وجوار قالمه[2].

قال اغسال: " وثم آلهة فينيقية تحت حجاب اللغة الفينيقية ".

ولم تزل ديانة الفينبقيين التي أدمجها البربر مع ديانتهم حتى جاءت وثنية الرومان فتعاشر الثلاث ثم ظهر الدين المسيحي فتدثر[3] به جانب من البربر مستبطنا[4] لوثنيته الملفقة من الوثنيات الثلاث[5] وبقي أكثرهم وثنيا صريحا حتى جاء الدين الإسلامي على ايدي فاتحي أفريقية من العرب فقضى على الجميع[6].

قال ﷺلكن العلم يتناقص، والجهل ينتشر، فنزيلها من أصلها ولا نتركها، وعندنا أصل في الشريعة "سد الذرائع" ربنا لنبيه ﷺ والصحابة {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ}الأنعام١٠٨ النبي ﷺ والصحابة كانوا يسفهون آلهة المشركين، وأنها آلهة لا تنفع ولا تضر، لا تخلق، لا تدفع، فإذا سمع المشركون ذلك غضبوا لآلهتهم، فيسبون الله، فقال الله { وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ } فانتهوا عن ذلك، لانهم إذا تكلموا في آلهتهم بشيء سبوا الله، فسد بهذه ذريعة حتى لا يسب الله تبارك وتعالى نهوا عن سب آلهتهم.

فإذا كان اتخاذ لباس فيه هذه الصورة أو غير ذلك، أو مثلما يفعل بعض الناس يدخل بالقبعة وفيها تلك الصورة، هذا أمر واضح جدا، لكن الناس يغفلون أو يتغافلون عنه، فلينتبه إلى هذا.

[1] يعني مثل هؤلاء الناس الذين يتكلمون في ذاك التمثال الذي هو تمثال امرأة عارية، ومجرد قول "امرأة عارية" عيب ويكفي، كيف وهو تمثال؟! فهذا غير جائز، التماثيل في ديننا حرام، علي رضي الله عنه يقول **(بعثني ﷺ على أن لا أدع صورة إلا طمستها، ولا قبرا مشرفا إلا سويته)** فكيف بالتماثيل، والنبي ﷺ لما دخل مكة أزال التماثيل، التماثيل في شرعنا لا تجوز، نحن قلدنا الغرب على تمثال الأمير عبد القادر، وبوعمامة، وسيدي الشيخ، هذا كله لا يجوز.

[2] هذه بعض الآلهة التي كانت تعبد وأخذها البربر من الفينيقيين والقرطاجنيين.

[3] يعني تغطى

[4] مخبّئا.

[5] وثنية الفينيقيين، والرومان، والبربر.

[6] لأنه دين الحق، ودين الفطرة. فقبله البربر بكل أريحية، ومن غير قوة ولا جبر، والدين الإسلامي انتشر بالدعوة إلى الله، وليس بالقوة والجبر، هذا غير صحيح، في الزمن الأول كان الروم والفرس أهل جبروت وكبرياء، وقوة، وتسلط، فهل استطاعوا أن ينقلوا دياناتهم إلى الأمم الأخرى؟ مع ما استعملوه من الجبروت، ومن التسلط.

النبي ﷺ مكث في دعوته ثلاثا وعشرين سنة، عدد غزواته سبع وعشرون، وقيل من الصحابة من حضر سبع عشرة، تسع عشرة، كما جاء في صحيح مسلم، نقول سبع وعشرون غزوة، عاش ثلاثا وعشرين سنة، وليس في كل الغزوات

على أنه لم تزل الى اليوم عوائد متخذة عقائد لا تتفق مع روح الدين الاسلامي[1]، ويبعد أن تكون من بقايا الوثنية الأولى، فان الاسلام قد تمكن من قلوب البربر حتى أن تلك العقائد الفاسدة إنما عاشت بينهم لاحتمائها بالإسلام وتسترها بجداره[2]، فلو وجد[3] من العلماء المخلصين لدينيهم وقومهم عدد كاف لحمل العامة على الثقة بما يقولون[4]، وأخذوا في رفع الستار عن فساد تلك العقائد[5] لنفض مسلمو اليوم أيديهم منها[6]، ولكن ما لم يكن اليوم[7] فعسى أن يوجد غدا[8]، إن رحمة الله قريب من المحسنين[9].

كان فيها قتال، في بعضها قتال، وفي بعضها لا يوجد فيها قتال، فكيف يقال إن هذه الدعوة انتشرت بالسيف والقوة والجبروت، هذا كلام غير صحيح، الإسلام انتشر بالدعوة وباللين.

والإسلام انتشر في شرق آسيا كلها بالدعوة والأخلاق، حتى إنه يقال في ماليزيا لافتات "هذا بلد فتح بأخلاق المسلمين" يعني بأخلاق التجار، وتعاملاتهم الصحيحة الصريحة، وإذا تعاملت مع أي أحد بالخلق الإسلامي، وتعاملت في البيع والشراء بآداب الإسلام، يحبك من هذه المعاملة فقط، فإذن لم يكن انتشارها كما يزعمون، يقولون دين القوة، وانتشر بالسيف والدماء، ولقد ذكرت لكم أعدادا، وكما يقولون: سيد الأدلة الأرقام، لا يوجد مثل الأرقام.

الخمس عشرة سنة الأخيرة من ٢٠٠٠م إلى الآن، أمريكا قتلت الملايين من المسلمين، وهم يقولون دعاة السلام، وهم الإرهاب حقيقة، بوش، وكلينتن، وأوباما، هؤلاء الثلاث لو تحسب في سنواتهم -كل واحد حكم خمس سنوات- قتلوا من المسلمين الملايين المملينة وهذه التي عُرفت، أما التي لا تُعرف فالله أعلم بها.

[1] لهذا نسأل: ما هو أصل هذا الفعل، بعض الناس يفعلونا أشياء، ويربطونها ببعض الطقوس، فنقول: ما هو أصلها؟ مثل الاحتفال بيانير، ورأس السنة، ورأس السنة الفلاحية، والربيعية ...الخ

[2] يعني أسلموا وبقيت فيهم أشياء، فكانوا يسترونها بإسلامهم

[3] هذا تمنٍّ من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

[4] أي بما يقول هؤلاء العلماء.

[5] الباقية في الناس.

[6] ولم تبق فينا العقائد الضالة الشركية.

[7] مبارك الميلي يتكلم على زمانه. توفي سنة ١٩٤٥م.

[8] المستقبل، لعله إن شاء الله يكون فيكم علماء يحققون أمنية المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

[9] لا يلزم أن يتخرج العالم عن العالم، قد يتخرج العالم عمن هو دون العالم -طالب علم- ولكن من يأخذ عنه يتقدم ويزيد فيصير عالما، ومن فائدة شيخك أنه يقرب لك الفهم، ويسهل لك العلم، ويبين لك الإشكال، ويربح لك الوقت، يعني بدل أن تقرأ العلم في خمس سنوات فبوجود شيخ تربح ذلك الوقت، فتفهم هذا العلم في وقت أقل، في شهرين وثلاثة أشهر، ذاك العلم الذي فهمه شيخك بعد خمس سنوات، أو أربع سنوات أو ثلاث، قضى فيه شوطا، فإذا

وقد اتضح لك من هذا الفصل وما قبله ان القرطاجنيين أثروا في البربر تأثيرا بعيد الأثر، لا يحوي تاريخهم نظيرا له إلا ما كان من تأثير العرب في العصر الإسلامي، وسر ذلك أن البربر[1] يأنفون من يعبث باستقلالهم ويتذرع إلى ذلك بوسائل الخداع السياسي والنفاق الاستعماري[2]. وإذا أنفوا من أمة هذه خلالها رفضوا مدنيتها وهجروا أخلاقها وعقائدها، والفينيقيون كالعرب من الجنس السامي[3] جنس الصراحة الصادقة والكلمة الثابتة[4]، فلذلك أثروا في البربر ذلك التأثير ونفذوا إلى قلوبهم فغيروا من أخلاقهم وعوائدهم ولغتهم وعقائدهم[5].

كان صادقا مع طلابه أفهمهم إياه في زمن قليل، فتربح أنت خمس سنوات وفرها لك الشيخ، هذه هي فائدة الشيخ، فقد لا يصير الشيخ عالما ولكن من تحته ومن يدرس عليه يصل إلى درجة العالم، نسأل الله تعالى أن يكون فيكم علماء يحققون أمنية المؤلف رحمه الله.

[1] هذا طبع آخر للبربر، {يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}فاطر١٤، هو يتكلم عن جنسه، طبع في البربر.

[2] هذه فائدة جليلة، البربر لا يحبون أن يعبث باستقلالهم ويتذرع حتى يتسلط عليهم بوسائل الخداع السياسي والنفاق الاستعماري.

[3] احفظ هذا!

[4] هذا أصل جنس العرب، ولهذا فضّل العرب على غيرهم كجنس، لكن بالأفراد {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}الحجرات١٣، فهذه معلومة، لكن كجنس جنس العرب أفضل من جنس العجم، وقد قال ﷺ (ولو كان هذا الإيمان بالثريا لنالته أيد من فارس) [رواه البخاري 4518، ومسلم 4619] وقيل يقصد بذلك سلمان الفارسي ﷺ.

[5] إذن السر في التغيير أن تكون صاحب صراحة وصدق، وهذا أصل ووصف في الشريعة الإسلامية، ولهذا هكذا كان النبي ﷺ، كان إذا أرسل جنوده وسراياه يقول: إذا نزلت عندد القوم فادعهم إلى الإسلام، فإن رفضوا يدفعون الجزية، لأننا سنحكم بالإسلام، فإن رفضوا فقاتلهم، هذه صراحة ما بعدها صراحة، وهكذا دعوة الإسلام، ليس كالفرنسيس، لما نزلوا هنا في "سيدهم فرج" وعقدوا عهد الصلح، واستسلم الداعي في ذاك الوقت، ٥ جويلية ١٨٣٠م، عقد أو معاهدة الاستسلام، أعطاهم شروطا: أن لا يمسوا ثرواتهم، وأموالهم ومكتنزاتهم، وأن لا يتعرضوا إلى دينهم، ولا إلى نسائهم، فبمجرد أن أبرموا العهد دخل الفرنسيس همج فسرقوا أموالا كثيرة، لأن فرنسا في الحقيقة دولة سارقة، لص من اللصوص، الجزائر تطالبها بقطع ذهبية ثمينة جدا، سرقتها فرنسا ولم تردها إلى الآن، والآن تأتي لتتكلم مع الجزائر! -نقول- انت لص، برئي نفسك من اللصوصية ثم بعدها تكلمي مع دولة نقية مثل هذا البلد، وقتلوا من قتلوا، واغتصبوا النساء، وفعلوا الأعاجيب، المسلمون لا يفعلون هذا.

النبي ﷺ في عام الفتح لمّا أتوا مكة، وفتحوها، جاؤوا بالسلاح خشية أن يقاتل أهل المكة النبي ﷺ، لكن السيف كان في غمده مخبأ، إن قاتلوا قاتلوهم، فوقع أن بعضهم أبدوا معارضة، ومقاومة فقتل بعضهم، لكن كان من خالد بن

٥ - نشوء الممالك البربرية العظمى

إذا ألقى المرء نظرة على خريطة الجزائر الطبيعية[1] ألفاها ذات أقسام مختلفة: جبال وهضاب وحقول وصحار، ولأهل كل قسم من هذه الأقسام طبائع وعادات يختلف بعضها عن بعض تبعا لاختلاف الأمكنة[2]، ولكنهم لم يكونوا من الاختلاف بحيث لا يتعارفون ولا يتحاملون، فقد كان بالوطن الجزائري طرق تخترقه[3] وتربط بين هاتيك الأقسام[4]، وتسهل المواصلة بين السكان[5]، ففي كل عام ينتقل أهل الصحراء بمواشيهم إلى التل- كما هي الحالة اليوم- وتقع المعاملة بين الفريقين: يأخذ التلي الصوف والتمر، والصحراوي الحبوب.

الوليد ﷺ أن قتل طائفة منهم فقال النبي ﷺ (اللَّهُمَّ إني أبرأ إليك مما فعل خالد) [أخرجه البخاري (٤٣٣٩)، والنسائي (٥٤٠٥)، وأحمد (٦٣٨٢)]، ووداهم، كل ميت أعطى أهله ديته، وبعد صلح الحديبية ونقضت قريش العهد، جاؤوا إلى النبي ﷺ يتبرؤون من هذا النقض، وكان النبي ﷺ عنده بعض الصحابة ومنهم المغيرة ابن شعبة ﷺ وكان ملثما، فجعل الذي يتكلم مع النبي ﷺ يمس لحيته، والمغيرة يضرب يده بالسيف -انزع يدك عن لحية رسول الله ﷺ- عروة بن مسعود الثقفي التفت إليه وقال: من أنت؟ فكشف عن وجهه وقال: أنا المغيرة بن شعبة، قال: يا غُدر، ألم أزل أسعى في غدرتك الفلانية، يعني ألا تذكر ماذا صنعت في الجاهلية ألم تأخذ مالا من قوم وغدرت بهم ..الخ وأنا الذي دفعت عنك؟ فقال ﷺ (أما الإسلام فأقبله، وأما المال فليس لي فيه شأن) [انظر القصة كاملة في صحيح البخاري [2731] إذا كان هو تحمل مالا فهذا يرده عليه، هو الذي يتحمله، أما إسلامه فأنا أقبله، فهذه هي الصراحة والصدق في الإسلام، ليس كمثل هذه الدول التي تنافق في معاملاتها وسياساتها وغير ذلك.

هكذا جاء العرب بالإسلام فتقبله أهل هذا البلد.

[1] يعني اختلاف المناطق الجزائرية بحسب طبيعة جوها وبيئتها.

[2] الأرض لها أثر على صاحبها.

[3] منافذ ومسالك.

[4] فكان ينتقل أهل بلدة إلى أخرى، والتعامل يتناوب بينهم.

[5] قال ﷻ {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}الزخرف١٠ فالله جعل في الأرض مسالك وطرق.

وبذلك تكونت علاقات بين الشعوب الجزائرية منذ أقدم العصور التاريخية، وتأسست منهم ممالك كبرى ذات نظام وعمران وحضارة[1].

صيفاقس من ملوك البربر استطاع أن يجند (٦٠) ألفا لمحاربة سبيون الأفريقي، ويوبا الأول جمع لحرب قيصر (٣٠) ألفا راجلا و (٢٠) ألفا فارسا، وفي القرن الثاني (ق. م) كان مصينيسا ومصيبسا ويوغورطا ملوكا على ما بين طرابلس ومراكش، وقد يمتد حكم بعضهم إلى المحيط الاطلانتيقي.

وقد بلغ من عظمة ملوك البربر أن كانوا إحدى العوامل في سقوط قرطاجنة[2]، وغصت بهم رومة رغم اتساع بلعومها لكثير من الأوطان[3].

وقد كان هؤلاء الملوك يحبون الاستبداد بالسلطة والاستقلال بالإرادة[4] والإدارة[5]، لذلك أسلموا قرطاجنة للسقوط وقاوموا رومة حينا من الدهر[6].

ولملوك البربر نواب في مختلف الجهات يسمون ملوكا أيضا، ويرسلون للمدن عمالا، ومن المدن ما منحوها الاستقلال[7]، ونظمت حسب نظام المدن القرطاجنية، وكان لها قضاة كقضاة مدن قرطاجنة الذين يعرفون بالاشفاط **SUFFETE**. ومنحت تلك المدن حق ضرب النقود[8]، فكتبت عليها باللسان الفينيقي.

---

[1] يتكلم عن الممالك العظمى التي كانت في هذا البلد.

[2] يعني أثر عن ملوك البربر أنهم تسببوا في ذهاب دولة قرطاجنة وعودتها إلى أصل بلادهم.

[3] بعد ذهاب قرطاجنة أتت رومة لكن غصت، الغصة معروفة، أصابته غصة يعني سد مجرى تنفسه، فرومة رغم أنها أخذت بلاد إفريقيا بلدان كثيرة إلا أنها غصت وضاق عليها الحال لقوة ملوك البربر.

[4] الميل لفعل الشيء.

[5] سياسة الأمور. الإدارة والإرادة يتقدم حرف واحد فيختلف المعنى لكن لها أصل يجمعها.

[6] مع أن قرطاجنة لم تأت للاستعمار والاستبداد والتسلط.

[7] تستقل بإدارة شؤونها.

[8] استقلت ولها حق أن يكون لها نقود خاصة بها التي هي تصير قيما للمتلفات، والمتاع.

والحكومات البربرية وراثية محصورة في بيوت منهم سواء في ذلك الملوك ونوابهم[1].

وقد كان بقرطة تجار وعملة من الإغريق والإيطاليين[2]. وكان نطاق العمران متسعا، ولكن شمال قرطة كان أوفر حظا، فكانت المدن بتلك الناحية كثيرة عامرة. وتوجد مدن عامرة أيضا وهي في الجنوب منها تفيست[3]، وقد بلغ من عمرانها وكثرة سكانها أنها في سنة (٢٥٠) ق. م تمكنت من إعطاء ثلاثين ألفا من رجالها رهنا على الطاعة لقائد قرطاجني[4].

وانتشرت الفلاحة على يد مصينيسا، وكثيرا ما مون ملوك نوميديا جنود الرومان بالقمح والشعير في حروبهم بالمشرق أو باسبانيا أو بجزيرة دانيا، ولم تزل الجزائر من ذلك الحين صالحة للفلاحة[5] وتربية الحيوانات التي تكلم عليها سالوست، والعمارة الفلاحية كانت تمتد الى حد الجزائر الغربي، وكانت مصيصيليا أغنى من مصيليا رجالا ونتاج أرض.

---

[1] هذه هي الطريقة التي كان عليها ملوك البربر قديما، وهو أنهم يتوارثون الملك ابن عن أب.

[2] الإغريق قلنا سكن من جزيرة البلقان، والإيطاليون معروفون.

[3] إذا قلت: ما المشكلة في أننا نزور إسبانيا وتركيا وفرنسا ...الخ ونحن بلادنا لم نزرها، لو تذهب إلى المناطق شرقا وغربا وجنوبا، تجد أسماء مناطق هي هذه التي نقرأها الآن، هي تأتينا غريبة، لكن اذهب جهة الشرق والغرب والجنوب، تجد هذه الأسماء لهذه المدن، لكن بعضهم تذكر له اسم مدينة يظن أنها في أوربا أو آسيا ...الخ

[4] كانت مستسلمة بحيث أنها بينت أنها تابعة لهذا القائد القرطاجني إذ أعطت ثلاثين ألفا من رجالها كجند.

[5] ولا تزال ولكن من يخدمها.

وكان البربر يفتخرون بكثرة النسل، قال اغسال: " ويرون أفريقية أكثر من غيرها في ولادة التوأم[١] " ومراده بأفريقية ما يشمل الجزائر. ولم يزل هذا الخلق الى اليوم بزواوة، قال أبو يعلى الزواوي[٢]: ومن عادات زواوة أنهم " يقلدون المرأة التي أَذْكَرَتْ نوعا من الحلي خاصا بالجبهة "[٣].

وبتقدم العمران تقدمت الحضارة، قال اغسال: "ولم يكن جميع من تحت هؤلاء الملوك متوحشين[٤]؛ فقد شيدت المباني العجيبة من منازل وصوامع وقصور وقباب ومعابد. كل ذلك على نمط الفن الفينيقي أو الفن الأفريقي المركب من الفنين الفينيقي والإغريقي[٥].

---

[١] والمراد بالتوأم الولدان في البطن الواحد، ويمسيان توأما إذا كان ما بينهما أقل من زمن النفاس، أربعين يوما، وعلى قول بعض الفقهاء ستين يوما، هذه مسلة فقهية متى يقال: للبطنين أنهما توأم؟ إذا كان بينهما زمن أقل من زمن النفاس.

[٢] عالم من علماء الجزائر $ ومن علماء جمعية العلماء الجزائريين المسلمين، وله كتابات قوية في جريدة البصائر ومجلة الشهاب، وجريدة البصائر، وله مقالات قوية جدا في اللغة ومسائل الدين، ومسائل الدفاع على البلد والإسلام، كان يلقّب شاب الشيوخ وشيخ الشباب.

[٣] هذا من تاريخ زواوة، يقلّدون من القلادة يجعلون عليها قلادة التي أذكرت أي ولدت ذكرا.

[٤] فرنسا هي المتوحشة. قال **(ولم يكن جميع من تحت هؤلاء الملوك متوحشين)** أهذا مدح؟ يعني هناك متوحشون؟

[٥] نكتفي بهذا والله تعالى أعلم.